# الاستدلال العقلي على مسائل العقيدة
# عند السنوسي التلمساني-895 –

أ . خليفي الشيخ
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

## أوّلا- اسمه ونسبه وولادته :

يتّفق الذين ترجموا للسنوسي فيما أوردوه حول كنيته واسمه ونسبه، فيذكرون لنا اسمه ونسبه ووفاته، دون كبير خلاف في ذلك .

أمّا كنيته واسمه ونسبه، فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، فكنيته أبو عبد الله ، واسمه محمد ، ولقبه وشهرته السنوسي، اشتهر بهذا اللقب نسبة إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه [1] أمّا الحسني فنسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أمّ أبيه[2].

---

[1] – ابن مريم البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 م– :ص237 ، الحفناوي – تعريف الخلف برجال السّلف ط5 ، مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان و المكتبة العتيقة ، تونس ، 1402هـ /1982 م: ص 179

[2] – يشارك محمّد بن يوسف السنوسي في الانتساب والاسم محمد بن علي السنوسي المستغانمي صاحب الطّريقة السّنوسية المتوفى سنة 1276هـ / 1859م فبرَغم ما كتب عن السنوسي التلمساني المتكلّم فإنّه يبقى مجهول لدى الكثير، بل إنّ من الباحثين من يخلط بينه

أمّا عن ولادته ، فيجمع المترجمون على أنّ السنوسي ولد بتلمسان ونشأ بها ، غير أنّ تاريخ ميلاده كان محل اختلاف كبير بينهم ، تستلزم محاولة تحديده المقارنة بين روايات مختلفة وآراء متضاربة ، ولكي يكون ذلك التّحديد أقرب ما يمكن إلى الحقيقة ، لابد أن يكون آخذا بالاعتبار جملة من العناصر .

العنصر الأول : ما ذكره بعض المترجمين من تحديد لعمر السنوسي عند وفاته فقد ذكر التنبكتي[1] و ابن مريم: "... رأيت مقيّدا عن بعض العلماء ، أنّه سأل الملالي عن السنوسي فقال له : مات عن ثلاث و ستين سنة و الله أعلم"[2]. وتابعهما في نقل نفس الرّواية الحفناوي[3] .

---

وبين السنوسي صاحب الطّريقة في التّصوف من ذلك الدّكتور عبد المجيد عابدين في كتابه " تاريخ الثّقافة العربية في السّودان . أنظر مقدّمة محقق شرح أمّ البراهين . مصطفى الغماري : - دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م ص9

[1] - هو أبو العباس أحمد بابا التنبكتي السوداني ولد عام 963هـ ، قرأ النحو على عمه أبوبكر والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على العلامة"بغيغ" توفي سنة 1032هـ ، له عدة مصنفات منها :"نيل الابتهاج بتطريز الديباج"و"مختصر خليل". الحفناوي - تعريف الخلف برجال السلف :ج1 ص16-25

[2] - التنبكتي –نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ط1 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1329 هـ : ص 328 . و ابن مريم – البستان : ص247

[3] - هو محمد الحفناوي (1269-1361هـ/1852-1941م) بن أبي القاسم الديسي بن إبراهيم الغول ،كاتب شاعر له اشتغال بالتاريخ ولد ببلدة تسمى "الديس" بالقرب من مدينة بوسعادة وتعلم في زاوية ابن علي داود ببلاد زواوة ثم في زاوية طولقة وزاوية الهامل ، شارك في تحرير الجريدة الرسمية تدعى (المبشر) من سنة(1301هـ إلى سنة 1344هـ/1884م إلى سنة1926 م) ودرّس بالجامع الكبير بمدينة الجزائر من سنة 1314هـ/1926م،وتولى منصب الإفتاء المالكي سنة 1355هـ ، له عدة مصنفات منها:"تعريف الخلف برجال السلف" و"الخير المنتشر في حفظ صحة البشر" .عادل نويهض – معجم المؤلفين من صدر الإسلام حتى

و قالوا أنّه مات سنة 895هـ[1] .

العنصر الثاني : ماذكره الملاّلي[2]قال : "وأخبرني قبل موته – حكاية عن شيخه السنوسي – بنحو عامين أنّ سنه خمسة وخمسون سنة"[3] ، وانطلاقا من هذه المعطيات حاولت المراجع الحديثة استنتاج تاريخ ميلاد الرجل ؛ فرأت أنّه ولد سنة 832 هـ/ 1428م[4] .

إنّ هذه العناصر مجتمعة بما تحمل من تضارب بين أجزائها ، تسفر على أنّ الفترة المحتملة لمولد السنوسي هي الفترة الممتدّة من سنة 838هـ إلى 893هـ [5] ، وهو أمر يدعو إلى مزيد من الموازنة ومزيد من الترجيح للوصول إلى تاريخ أكثر ضبطا ودقّة .

إذا تصفّحنا العناصر الآنفة الذكر ، وقارنّا بينها تبيّن لنا أنّ العنصر الأول غير جدير بالاعتبار في تحديد تاريخ ميلاد الرجل ، وذلك لأنّه يتعلّق برواية عن مجهول حيث لم يذكر اسم العالم ولا الكتاب الذي رأى فيه ذلك ، كما أنّ الملالي لم يذكر هذه الرّواية في كتابه[6] ، وأمّا العنصر الثاني فهو كبير الأهمية ،

---

العصر الحاضر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1980م : ص121

[1] - الحفناوي – تعريف الخلف برجال السلف : ج1 ص187

[2] - لم اقف له على ترجمة في المصادر التي وقعت بين يدي .

[3] - المرجع نفسه : ج1 ص: 186 . و ابن مريم – البستان : ص247

[4] - الزركلي – الأعلام ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1980 : ج 7 ص 154. وعادل نويهض- معجم أعلام الجزائر : ص180-181

[5] - اسعيد عليوان- محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق (دراسة و تحقيق)، رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه الحلقة الثالثة في الفلسفة، جامعة الجزائر، "معهد الفلسفة"، إشراف د.عمار طالبي ، السنة الجامعية 86/ 87م : ص 20

[6] - المرجع نفسه : ص 20

وذلك باعتبار التّقارب الذي كان حاصلا بين الملالي وأستاذه وهي رواية واضحة تتعلّق بإخبار ، وبناء على ذلك الأساس فالمعتمد في هذا هي رواية الملالي لأنّها كما يظهر أقرب إلى الصّواب و الحقيقة[1] .

**ثانيا - نشأته وطلبه العلم :**

لقد نشأ السنوسي منذ صغره على مائدة العلم والدّين والأخلاق ، وتربّى في بيت زهد وأدب ، فقد كان أبوه يعقوب يوسف السنوسي شيخا صالحا وزاهدا معروفا بعلمه وخشوعه[2]، فقد حفظ القرآن على يده وهو ما يزال يافعا ، ثمّ اتّجه إلى تحصيل علم الحديث والفقه والأصول والكلام والتّصوف واللغة والأدب ، ولم تكن دراسته مقصورة على هذه العلوم فحسب ، و إنّما تعدّاها ليدرس أيضا العلوم الكونية والفلكية و الرّياضية إلى غير ذلك ، و قد تفوّق فيها تفوّقا ملحوظا ، لا يتحدث في علم إلاّ ظنّ سامعه لا يحسن غيره ، لاسيما علم التّوحيد والمعقول ، كما يذكر أنّه شرع في التأليف والتّصنيف ولمّا يتجاوز عمره التاسعة عشرة .

**ثالثا - شخصيته العلمية :**

لقد تحقّقت للسنوسي شخصية علمية مستكملة لمقوماتها ، جامعة لشّرائط تكوينها ، وتتّفق المصادر التي ترجمت للسّنوسي على أنّ حظّه من الصّفات والأخلاق كان وافرا، وتصف هذه المصادر بأنّه كان صادق الإيمان ، صاحب رياضة روحية وأوراد زاهدة ، وكان له باع طويل في الوعظ ، ينفعل بما يعظ ، ويحصل له وجد فيبكي.

---

[1] - للمزيد من التوسع ، أنظر ، المرجع السابق : ص19 . وجمال الدين بوقلي- ابن يوسف السنوسي و علم التّوحيد دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985م : ص57

[2] - التنبكتي- نيل الابتهاج : 325 . وابن مريم – البستان :ص238 . والحفناوي - تعريف الخلف برجال السّلف : ص179

كلامه هداية لكلّ مريد كثير الخوف طويل الحزن لصدره أزير من شدّة خوفه فلقد ورد عن الشّيخ أحمد بن داود الأندلسي أنّه سئل حينما خرج من تلمسان عن علمائها فقال :" العلم مع السنوسي و الصّلاح مع السنوسي" [1] ، وكان رحيما مبتسما في وجه من لقيه مع إقبال وحسن الكلام تتزاحم الأطفال على تقبيل أطرافه ليّنا هيّنا في مشيه [2] .

أمّا عن ملامح شخصيته الاجتماعية فإنّ غزارة علمه ، وعزّة نفسه ، وقوّة شخصيته ، جعلت منه معظّما من قبل السّلاطين و الملوك والأمراء ، فقد طلب السّلطان أن يطّلع إليه ويقرأ التفسير بحضرته على عادة المفسّرين فامتنع ، فألحوا عليه فكتب إليه معتذرا أولا يقدر على التّكلّم هناك[3]. وأمّا شخصيته العلمية فتتميّز بالتّحدّي والعمق ، وقد لاقى السّنوسي متاعب كثيرة ممن يدّعي أنّه أعلم أهل الأرض ، ولما ألّف بعض عقائده أنكر عليه كثير من علماء وقته ، وتكلّموا بما لا يليق ، فتغيّر لذلك ثمّ أصبح وقد زال حزنه وعفا على المنكرين فخرست حينئذ ألسنتهم فرجعوا مقرين بفضله [4] .

ولم يكن السنوسي شديد الكلف بخصومه فقط ، وإنّما كان يجادل ويناظر أصحاب الملل الأخرى من أهل الكتاب ، وذلك راجع إلى سعة إطّلاعه وفائق درايته ، فقد استطاع أن يثبت لأحد اليهود بنبوة محمد عليه السّلام بنص

---

[1] - ابن مريم - البستان : ص 248

[2] - الحفناوي - تعريف الخلف برجال السّلف : ج 1 ص 180

[3] - ابن مريم - البستان : ص 241

[4] - المصدر نفسه : ص 242

التوراة ،كما كان له موقف مشرف من يهود توات وتأييده للمغيلي[1] في هدم بيعهم بعدما تجاوزوا الحدود الشرعية وتمردوا على الأحكام الدينية .

**رابعا – وفاته:**

لمّا أحسّ السنوسي بمرض موته انقطع عن المسجد و لازم فراشه حتى مات ، ودام مرضه عشرة أيام ، و لما احتضر لقنه ابن أخيه الشهادة مرة بعد مرة فالتفت إليه و قال له : و هل ثمّ غيرها و قالت له ابنته : تمشي و تتركني . فقال لها : الجنة تجمعنا عن قريب إن شاء الله . وكان يقول عند موته : نسأله سبحانه أن يجعلنا و أحبتنا عند الموت ناطقين بكلمة الشهادة عالمين بها . و توفي يوم الأحد الثامن عشر جمادى الثانية عام 895 هـ[2] ، وقد وصف الملالي وفاة أستاذه السنوسي بنوع من التفصيل في كتابه "المواهب القدسية في المناقب السنوسية " والظروف التي أحاطت به [3] .

**خامسا : طرق الاستدلال العقلي على مسائل العقيدة عند السنوسي :**

طرق الاستدلال العقلي على مسائل العقيدة عند الإمام السنوسي كثيرة أهمها:

---

[1] – هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني التواتي متمكن المحبة في السنة وبغض أعدائها،وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء عصره حين قام على يهود توات وألزمهم الذل وهدم كنائسهم ونازعه في ذلك الفقيه "عبد الله العصنوني" قاضى توات وأرسل في ذلك علماء وقته ،فكتب إليه "التنسي" ووافقه على ذلك الإمام"السنوسي" وكتب في ذلك رسالة طويلة قيدها التنبكتي عند ترجمته للمغيلي توفي سنة 909هـ . التنبكتي – نيل الابتهاج :ص330-331

[2] – ابن مريم – البستان :ص 244 . والحفناوي – تعريف الخلف برجال السلف :ج1 ص186

[3] – انظر ، اقتباس ، اسعيد عليوان من المخطوط " المواهب القدسية في المناقب السنوسية " للّملالي ، في رسالته الموسومة " محمد بن يوسف السنوسي و شرحه لمختصره في المنطق"(دراسة و تحقيق) : ص 33 و ما بعدها .

### أ - اعتماد مبدأ البرهان العقلي:

البرهان العقلي هو أساس العقيدة عند السنوسي ، فما هي طبيعة هذا البرهان ؟

هو دليل مركّب من مقدّمات قطعية ضرورية في نفسها أو منتهية في الاستدلال عليها إلى علوم ضرورية ، يقول السنوسي في شرح الوسطى : "وأمّا البرهان فحقيقته ما تركّب من مقدّمات ضرورية كلّها أو منتهية إلى الضرورة ، وإن شئت قلت ، هو ما تركّب من مقدّمات يقينية كلّها"[1].

وإذا سألت عن الغاية من البرهان العقلي أجابك : "والغرض من البرهان تحصيل اليقين، ووصفه في العقيدة بالقاطع لكشف معناه لا للتخصيص ، إذ لا يكون البرهان إلاّ قاطعا ويقابله الجدل و الخطابة و الشّعر و المغالطة" [2] .

وكونه برهانا يعني كونه قاطعا ، وذلك لتركيبه من مقدّمتين يقينيتين ، واليقينيات أقسام منها : أوّليات و تسمّى بديهيات ، ومشاهدات و تسمّى حسّيات ؛ وهي ما يجزم العقل به عن طريق الحس ، وتجريبيات ، ومتوتّرات[3] .

و البرهان عند السنوسي هو أحد أقسام الحجة العقلية لأنّ الحجة تنقسم بحسب مادّتها وحقيقتها إلى : حجّة عقلية وحجّة نقلية ، كما أنّ الحجة العقلية خمسة أقسام : برهان ، جدل ، خطابة ، شعر ، ومغالطة [4] .

---

[1] - السنوسي - شرح العقيدة الوسطى ط1 ، مطبعة التقدم العلمية ، مصر ، 1322هـ : ص 75

[2] - المصدر نفسه : ص 76

[3] - السنوسي - عمدة أهل التوفيق والتسديد - تحقيق عبد الفتاح بركة ، ط1 ، دار القلم ، الكويت ، 1982م : ص 25

[4] - المصدر السابق : ص 21

و الغرض من الجدل ينحصر في : إمّا لإقناع قاصر عن البرهان ، أو إلزام الخصم ودفعه ، بينما الغرض من الخطابة يتمثّل في ترغيب النّفس ، أمّا الشّعر فغرضه انفعال النّفس ، وأمّا المغالطة فهي سفسطة...أمّا الغرض والغاية من البرهان فيتمثّل في حصول العلم اليقيني [1] .

وعلى هذا الأساس ، أي أساس البرهان العقلي ، ينطلق السنوسي بوضع العقيدة وتأسيسها كاملة وتحويطها ثم تقديمها إلى المكلّفين ، كلّ المكلّفين دون استثناء [2] .

وانطلاقا من ذلك يقرّر السنوسي أن المكلّف مطالب أن يعرف من العقيدة بالبرهان القاطع؛ العلم بالله تعالى ومما يتعلّق به ، والعلم برسله عليهم السّلام ، "فيعرف ما يجب في حق مولانا جل وعز ما يستحيل وما يجوز ، وكذلك يجب عليه أن يعرف مثل ذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام"[3] .

والمتأمل على فحوى ومضمون العقيدة عند السنوسي مع أمهات براهينها يلمس كيف أنه استطاع أن يحصنها بالدليل العقلي أو يزاوجها بالحجة المقنعة ، ولا يسمح لنفسه أو يسعى لفرض مضمون توحيده فرضا ، كما أنه إذا حدث أن استشهد في عقيدة من توحيده بآية من القرآن إلى جانب الحجة العقلية ، فإنه لا يفوته التنوية بعلاقة هذه العقيدة بالنقل كما هو الأمر في صفات الله تعالى[4] ، يقول السنوسي عن هذا الأمر : "فإنّ تعليم العقائد الصحيحة ، ثمّ تأييدها مع ذلك ، بالبراهين القطعية ، المتضّح فهمها لديهم بطول التكرار الذي يوجب

---

[1] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 21

[2] - بوقلي حسن - ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد : ص 103

[3] - السنوسي - شرح أم البراهين , تحقيق مصطفى الغماري ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989م : ص 25

[4] - بوقلي حسن - الإمام ابن يوسف وعلم التوحيد : ص 164 -165

للنفس الطّمأنينة ، وعدم قبولها التشكيك بوجه من الوجوه ، فلا يخفى أنّ هذا من أعظم النّصيحة لهم"[1] .

وعلى هذا فغاية علم التوحيد لا تنحصر على مجرّد الدّفاع على العقيدة ضدّ التّحديات الواردة عليها وإنّما غايته كذلك تحصين إيمان المكلّفين بالبرهان ضدّ الشّبهات والجهل وإسكان القلب بالاطمئنان .

**ب - الاستعانة بالمقدّمات المنطقية :**

لقد التزم السنوسي في حياته بموقف معيّن ، هو الدّفاع عن عقيدة أهل السّنة ، وقد حصر همّه كلّه في نشرها وترسيخها في النّفوس وقد كانت أهم الحقائق الإيمانية عنده هي : وجود الله ووحدانيته وصدق الرسول وإثبات الوحي والتنزيل .

وقيمة العقل عنده ، هي بالنسبة لقدرته على القيام بهذه المهمّة ، ولمّا كان هذا العقل لا يؤمن عليه من الخطأ ، كان لابدّ من استخدام قواعد عقلية تعصمه من الشطط ، وهذه القواعد هي المنطق و مقدّماته .

فالمنطق بهذا يعدّ الأداة الأساسية التي تساعدنا وتمكّننا من معرفة الحقيقة وبيانها ، وإزالة الغموض عنها أي أنّه "قانون تعصم مراعاته – بتوفيق الله تعالى – الذهن من الخطأ في فكره كما يعصم النحو اللسان من اللحن .. بالإضافة إلى هذا ، فإنّه يسهل للعقل وعر الأنظار ، ويتسّع به مجال الفكر مع الراحة والأمن من الخطأ في سلوك مفاوز الاعتبار"[2] .

إذن فلكي يتسنى للعقل الوصول إلى نتائج صحيحة عليه أن يلتزم بطرق الفكر الأساسية والمتمثلة بشكل خاص في المقدّمات المنطقية ، ولذلك يعيب

---

[1] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص25

[2] – السنوسي – شرح لمختصره في المنطق , تحقيق ودراسة – اسعيد عليوان : ص 04

السنوسي على كلّ من رفض المنطق وقواعده "والذي يصرح بتحريمه هو الذي لا معرفة له بحقيقته "[1]

معنى هذا أنّ الذين رفضوا المنطق لم يرفضوه لعجزه عن الوصول إلى المعرفة وإنّما رفضوه انطلاقا من أفكار مسبقة ، كأن يكون دخيلا على العلوم الإسلامية ، على اعتبار أنّه لم يقل به السلف أو نحوه .

كما أنّه في هذا يبدو متأثرا بالغزالي وبابن عرفة " فالسنوسي يعتبر امتدادا للغزالي وممّا تأثر به تنقيته المنطق من ميتافيزيقيا اليونان وملئه بعلم الكلام الإسلامي ، وقد كان منطق السنوسي أكثر ميتافيزيقا من منطق الغزالي ممّا جعله يبدأ كتابه "المقدّمات وشرحه" – وهو كتاب في علم الكلام – بدءا منطقيّا .. بالإضافة إلى هذا فإنّ شرح السنوسي لمختصره في المنطق مليء بالأمثلة من علم العقيدة كالبراهين على وجود الله وحدوث العالم وغير ذلك"[2] .

ولأهمّية المنطق عنده فقد ألّف فيه كتابا ثمّ شرحه بعد ذلك ، ويظهر فيه أنّه متمرس به متمكّنا من قواعده وهو "شرح لمختصر المنطق" ، وقد قرّر فيه مسائل المنطق على طريقة المختصرات التي آل إليها التأليف في العلوم في ذلك العهد ، فابتدأه كعادة المناطقة بقسم التّصور ، فقرّر مبحث الألفاظ من حيث الدّلالة و أنواعها ، ثمّ التعريفات و أنواعها ، ثمّ انتقل إلى قسم التصديق فبحث القضية و أنواعها ، وأورد بعد ذلك أحكامها من تناقض وعكس وتلازم وانتهى إلى القياس وأنواعه ولواحقه ، وقد أورد فيه أقوال المؤلّفين السّابقين من أمثال ابن عرفة وغيره .

---

[1] – المصدر نفسه : 04

[2] – سعيد عليوان – محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق : ص 130

إنّنا نلمس من خلال هذا الكتاب أنّه اعتمد أسلوب الإيجاز ، ولكن الجدير بالتّنبيه عليه هو أن السنوسي لم يكن من الذين ملك المنطق عليهم نفوسهم فأعجبوا به إعجابا مبالغا فيه وإنّما كان ينظر إليه كعلم دعت الحاجة الظرفية إليه ، ولهذا فإنّه ينبغي الاستعانة به ومعرفته .

ورغم تأثر السنوسي بالغزالي و ابن عرفة إلاّ أنّه كان له اجتهاده الخاص في ذلك فنجده قد خالفهما في كثير من المسائل ويظهر ذلك في إهماله الناحية المادّية في المنطق ، وتأكيده على النّاحية العملية الوظيفية [1] .

كما أنّ منهج السنوسي في المنطق يقوم على الواقعية ، إذ أنّه راع فيه العصر الذي كان يعيش فيه وروحه ، فهو لم يخرج في ذلك عن طريقة كتابة المختصرات التي كان المفكّرون يتبعونها بمختلف فروع المعرفة الإسلامية وذلك بسبب قصور الهمم وعجزها عن فهم المطولات[2].

ومهما يكن من أمر فإنّنا نجد السنوسي استخدم المنطق ومقدّماته لخدمة علم الكلام وتقوية أدلّته وحججه وبعيدا عن منطق الرفض له ، ويكاد المزج بين المنطق وعلم الكلام يشمل جميع كتبه الكلامية وأشدّ ما يظهر ذلك في كتابه "المقدّمات" وشرحه له ، لأنّه كان يعتبر أن علوم الشريعة هي من جملة العلوم التي ينبغي أن يستخدم فيها المنطق ، لأنّ العلوم كلّها تصبح طوع اليد لمن أتقنه.

وممّا يجب ملاحظته هنا هو أنّ تعلّم المنطق ليس عاما لكل أحد ، فصاحب العقل الذكيّ والطّبع السّليم لا يحتاج إليه ، وهنا ينبغي التّمييز بين شيئين ، بين معاني قواعد المنطق المركوزة في عقل كلّ أحد وتعلّم اصطلاحاته

---

[1] - المرجع نفسه : ص 132

[2] - المرجع السابق : ص 133

وضبط قواعده ، فمعاني قواعد المنطق فطرية لا يستطيع أي إنسان طلب العلوم المكتسبة بدونها [1] .

**ج: شحن الأدلّة العقائدية بالمعاني الذّوقية :**

كان الشيخ السنوسي حريصا على تأسيس القاعدة العقائدية قبل خوض غمار التّجربة الصوفية الذّوقية في زمن اختلط فيه المصلح بالمظلل ، والمتعلّم بالدّجال وانتشرت فيه ألوان من الطرق الصوفية ، والحقيقة لقد كثرت في عصر الإمام الفتن واشتدّ الصّراع بين السلاطين كما أنه في عصره قد راجت سوق المتظاهرين بالعلم بصفة عامة ، وقد ساعد على ذلك انتشار التعصّب والخرافات والاشتغال بظواهر الشّرع والمنازعات الدّينية المختلفة ، ومعاداة العلماء بعضهم لبعض ، وغلبة الظّواهر الجافة واستخدام العلم والمعرفة لغرض المحاولات الدنيئة .

وقد كان السنوسي يأسى لما يدور حوله في المجتمع الزّياني من لهو في اللذات ، ولذلك حارب هذه الظّواهر وأدرك مبدأ أنّ الإنسان لا يستطيع إدراك الحقيقة إلاّ إذ جرّد عقله من الهوى ، وهو يركّز هنا على أمرين ، العقل والهوى ، فالهوى يضرّ بالإنسان روحا وجسدا ، ولا يقمعه إلاّ العقل وهذا أشرف الأصول الأخلاقية عنده ، لهذا نجده دائم الاشتغال على أن تكون سلوكات المتعلّم مضبوطة على مقتضى المعارف العلمية والعملية لأنه كما يقول : "بعد بيان العلم الشريف ، التحريض في آخره على حسن العمل وذكر ما يبعث العاقل على الجدّ فيما يحصل رضى الله المولى جلا وعلا"[2] .

---

[1] - السنوسي - شرح لمختصر في المنطق : ص 04

[2] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد ، تحقيق مصطفى مرزوقي ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، دت .: ص 22

فإذا أدرك الإنسان ، والمتعلم بالأساس هذه الحقيقة ثبت إيمانه بربّ العالمين وتحصن من الجهل ، وأدرك بالعقل السديد ، والفكر الباحث ، الغاية من الحياة ، فيدفعه ذلك إلى الطمع والطموح إلى الفوز بالتقوى ، لأن حقيقة السعادة ليست في العلم وحده ، بل وفي العمل به [1] .

وحتى يتحقق هذا الأمر ينبغي شحن الأدلّة العقائدية بمعاني ذوقية لأنّ " تقرير الأدلة البرهانية للعقائد على التمام ثمّ وشحها بخطابات تصوفية ، تهزّ النفوس النّائمة لتعظيم جناب الحق ، ويدخل بها الضّعيف مع القوي في سلك الانتظام ، وتلك سنّة الله تعالى في تقرير الأدلة ، لتضمّنها الهداية العامة ، وإنالة البغية لكل موفق يروم الحق الوصول"[2] .

أي إن سلوك سبيل المقدّمات المنطقية والعلمية إلى معرفة الله والإيمان به ، سبيل قويم وصحيح ، ولكن يجب على المتعلّم أن لا يقف عند حدود ما دلّت عليه تلك البراهين والمقدّمات ، بل يتجاوزها إلى أن تصطبغ حياته كلّها بصبغته لأنّ الإيمان بالله لئن كان مطلوبا لذاته باعتباره الحقيقة العليا ، فإنّه يطلب أيضا بما يحدث في الحياة العملية للإنسان من آثار تنعكس عليها بالتوفيق والصّلاح [3] .

والإنسان لا تحصل له هذه الفائدة أبدا ما لم يكن إيمانه متأسّسا على القناعة العقلية ، فالإيمان عنده لا يكون صحيحا ما لم ينظر صاحبه في أدلّته ،

---

[1] - بوقلي حسن - ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية و الواقع ، رسالة ماجيستير ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان 1997 : ص 530

[2] - السنوسي - شرح كفاية المريد : ص 22

[3] - محمد سعيد رمضان البوطي - شرح الحكم العطائية (شرح و تحليل) ، ط1، دار الفكر ، دمشق، سوريا ،2001م :ج1 ص 210 ، وعبد المجيد النّجار- الإيمان و أثره في الحياة ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م : ص 165

بمعنى أنّ ترقية الإيمان بالعقيدة الإسلامية من درجة الوراثة والتّقليد إلى درجة الإقناع والإيقان ، والوقوف على الأدلّة المثبتة للعقيدة من شأنه أن ينقل صاحبه إلى تزكية العمل السلوكي الذي هو ثمرة التّصور النظّري .

هذه النتيجة المنطقية هي التي – حسبما يبدو – حملت السنوسي على رفض التقليد في الاعتقاد ، واعتبار أنّ النّظر هو أول الواجبات على المكلّف ، لأنّ ما يحصل من انحراف في الاعتقاد منشأه الأول عنده هو الاعتقاد الحاصل بوراثة و تقليد والإعراض عن النّظر في أدلّة التوحيد [1] .

وممّا تقدّم يمكن أن نستنتج أنّ السنوسي لم يقدّم على سلوك طريق التصوف والتزكية الأخلاقية إلاّ بعد إحكام العقائد بالأدلّة العقلية والبرهانية ، فالعقل يقوم بدور أساسي في الوصول بالإنسان إلى هذه الغاية .

فالسنوسي يرجع إلى العقل في السّلوك الأخلاقي ، فما يقضي به يجب عمله واتّباعه وما لا يقضي به يجب الاحتراز منه والابتعاد عنه وعلى الرّاغب في السّلوك أن يؤسّس نفسه على العلوم العقلية أوّلا ، ولا بأس عليه في أن يسلك طرق الصوفية إذا شاء بعد إحكام العلوم العقلية .

والحديث عن التجربة الصوفية عند السنوسي تدعونا إلى بعض الحذر ، وخلاصة هذا الحذر التعبير عن الحياة الذوقية بمصطلح "الذّكر" دون كبير اهتمام وذكر لكلمة تصوف ، وقد ردّ هذا الأمر ، إلى ما تثيره كلمة تصوف من تأويلات وبما تتضمّنه من مذاهب واتجاهات ، مع ما يعرف عنه من دقّة في اللفظ ، وشغف باختيار مصطلحاته وتحديدها [2] .

---

[1] – السنوسي – شرح العقيدة الوسطى : ص 7

[2] – بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية و الواقع : ص 416

وهو على العموم تفسير محتمل ومقبول ، تعزّزه الكتابات العقدية للسنوسي ، لكن في اعتقادنا أنّ هذا الأمر يعود بالأساس إلى اختياره للمصطلح القرآني ، هذا المصطلح الذي تكرّر كثيرا في القرآن الكريم وأكّدته العديد من الآيات من ذلك قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾[1].

وقوله : ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا،وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلاً﴾[2] وفي سورة الرعد: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [3] وقوله :﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[4].

ومن المعلوم أنّ أركان الإيمان إنّما تغرس يقينا في تربة العقل ، في حين أنّ أركان الإسلام سلوك يصطبغ به الكلام والأعضاء ، كثيرون هم الذين آمنت عقولهم بالله ، ولكن سلوكهم ناقض مقتضيات هذا الإيمان وخاصمه [5]، ومن هؤلاء جمع كبير كانوا على عهد السنوسي ، اتخذوا إيمانهم وعلمهم سلّما للتقرّب للحكام والعامة ، كما استخدموا علمهم ومعرفتهم لأغراض دنيوية بحتة؛ يتهارشون عليها تهارش الجهال بل أشدّ ، وزادوا على العامة بالجدال في الباطل ، والتكبّر على الإنصاف للحقّ [6]، وعدد أكثر من هؤلاء أنفسهم يملئون اليوم رحب الأرض .

---

[1] - الأعراف الآية 205

[2] - الإنسان الآية 26

[3] - الرعد الآية 28

[4] - الأنفال الآية 02

[5] - محمد سعيد رمضان البوطي - شرح الحكم العطائية : ج1 ص12 - 13

[6] - السنوسي – عمدة أهل التوفيق والتسديد : ص 58

إنّ السّبب العلمي في ذلك أن العقل ليس هو الدّافع الوحيد في كيان الإنسان إلى السّلوك بل يزاحم العقل وينافسه في ذلك العصبيات والأهواء والأغراض والعواطف بأنواعها ، فإذا لم تتّصل وتمتدّ بين العقل وكيان الإنسان حلقة أساسية ، فإنّ العقل لابدّ أن يصبح هو المغلوب و المهزوم في هذا العراك، وعندئذ تصبح قيادة السّلوك بيد هذه العوامل الأخرى المتمثّلة في العصبية والأغراض والأهواء ورياح العواطف المضادّة ، وهذه الحلقة هي الإكثار من ذكر الله و تذكر نعمه وحسن مراقبته تعالى [1] .

وتظهر تجربة السنوسي الذوقية أشد وأوضح في الفصول الأخيرة من كتابه "شرح أم البراهين" فقد أفرد في نهاية هذا الكتاب شرح لكلمة التوحيد وهي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم" لأنها بحسبه كلمة جامعة لكل معاني العقائد ولأنها تنطوي تحتها من المحاسن ما يتشعشع القلب عند ذكرها بأنوار اليقين ، وهي مما يجب على كل مؤمن أن يعتني بشأنها ، إذ هي ثمن الجنة والمنقذة من المهالك دنيا و أخرى [2] ، فعن عبادة بن الصامت أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار "[3]

فللذكر عند الشيخ السنوسي ، وجهان : وجه نظري ، ووجه عملي ، فالأول وهو الأصل، هو علم التوحيد وأعلى مراتبه توحيد الله ونفي الشريك عنه وإثبات رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم ، وهذا يبحث بالعقل في نطاق ما يجب لله وما يستحيل وما يجوز ، وكذلك لرسله ، أما الوجه الثاني ، فهو دخول الممارسة الذوقية سعيا وراء بلوغ الثمرة ، والفوز بالنتيجة ، علما أن الاستفادة

---

[1] - سعيد رمضان البوطي - شرح الحكم العطائية : ج 1 ص 13

[2] - السنوسي - شرح أم البراهين :ص 65

[3] - أخرجه مسلم : كتاب الإيمان .

من الثمرة لا تتحقق إلا من شرف الأصل وهو التوحيد واستقامة النتيجة تأتي من ثبات المقدمات وهي أحكام العقل[1] .

بمعنى "إن علم التوحيد ثلاث محطات : الإيمان العقلي بالألوهية و مقتضياتها ، و الإيمان بالرسالة وما يترتب عنها ، وأخيرا ، الدخول في الذكر"[2]، لأن من تتمات الكلام في عقائد الإيمان التنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى ، و معرفة صدق رسله عليهم الصلاة والسلام حتى ينتظم المؤمن بهذا في سلك المتقين فيتطهر من عيوب نفسه والصعود بهذا إلى منازل الأبرار ، وبالجملة فالعمل بمقتضى هذه المعاني يجتني المؤمن من الثمرات ويرتقي بفضل الله إلى ذروة أولياء الله تعالى الفائزين بأعلى مقامات الإسلام والإيمان والإحسان [3] .

وإعلاء بكلمة الذكر وتقديرا لمنزلته الشريفة ، فقد وضع السنوسي شروطا له ، حتى يتحقق على الوجه الأكمل والأتم .

ومن جملة هذه الشروط :

1 - أن يعظّم الإنسان الذاكر ما عظّم الله ، وأن يحسن أدبه مع ما شرّف مولانا عز وجل، وسبيل ذلك أن يقصد المؤمن إلى الطهارة ، ويلبس أحسن الثياب ، و يقصد مكانا طاهرا ، كما يقصده للصلاة .

2 – تحرّي الخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى يتمكن من محاسبة النّفس ، وحسن مراقبة الله .

---

[1] - بوقلي حسن - ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية و الواقع : ص 416

[2] - المرجع السابق : ص 416 .

[3] - السنوسي - المنهج السديد في شرح كفاية المريد :ص 462

3 – اختيار الوقت المناسب والزمن الملائم ، وخير هذه الأوقات ما كان بعد الفجر وطلوع الشّمس وبعد العصر إلى غروبها ، وما كان بين العشائين ، والخيط الذي يجمع هذه الأوقات أنّها نجوة من ضجيج الناس وشواغل الدّنيا وضوضائها .

4 – استقبال القبلة وافتتاح الورد بالاستغفار ، ليغسل ويطهّر باطنه من أدران المعاصي فإذا التزم الذّاكر بهذه الشّروط تهيأ للتحلية التي هي التحلّي بالنور الإلهي الزّكي اللامع من معرفته تعالى. وأشد ما ينبغي للذاكر ترديده من جملة الأذكار ، أن يقول مخلصا من قلبه "لا إله إلا الله محمد رسول الله "، لأن هذه الكلمة المشرّفة جامعة بين التخلية والتحلية .

والتخلية عند الإمام أن يخلي الذاكر من قلبه جميع الخواطر الوهمية التي تتردد عليه ، وجميع الأغيار التي ملأته من جاه ومال ونساء ، ومدح وذم وطردها كلها من القلب [1] .

وينبغي للذاكر في ذلك أن يكثر من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، لأنه دليل الخلق إلى الله تعالى ، إذ كيف يصل الذاكر إلى الله وقد غفل عن ذكر دليله عليه الصلاة والسلام السلام ؟ [2]

**الفوائد المترتبة على الذكر:**

إن المواظبة على الذكر بالكيفية السابقة، تحصل للذاكر جملة من الفوائد ترجع عنده إلى قسمين :

- منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ؛ فممّا يتصّف به الملازم للذكر :

---

[1] – السنوسي – شرح أم البراهين :ص 90

[2] – المصدر نفسه : 90-91

أولا : اتّصافه بالزهد ؛ وهو خلو الباطن من الميل إلى كل ما هو فان ، وفراغ القلب من الثقة بكل ما هو زائل ، وهو على ضربين ؛ زهد مكتسب وزهد غير مكتسب وهو : برودة الدنيا من قلب الزاهد حتى تصير كالميتة[1] .

ثانيا : التوكّل ؛ وهو ثقة القلب بالوكيل بحيث يسكن ويطمئن عن الاضطراب ، يستوي في ذلك عنده وجوب الأسباب وعدمها وزهد لا يمكن الصّبر إلاّ بقوة التّوكّل[2] .

ثالثا : الحياء ؛ وذلك بتعظيم الله تعالى .

رابعا : الغنى ؛ وهو غنى القلب بسلامته من فتن الأسباب والاستكانة لقضاء الله وقدره .

خامسا: الفقر ؛ وهو تخلية يد القلب من الدّينار لقطعه أن حاجة الذاكر ليست عند شيء منها ، وسكون اللسان عنها .

سادسا : الإيثار ؛ وهو الجود على نفسه بما لا يذمه الشرع .

سابعا : الفتوة ؛ وهي الإعراض عن مطالبة الناس بالإحسان إليه والفتوة فوق المسالمة .

ثامنا : الشكر ؛ وهو إفراد القلب بالثناء على الله ورؤيته النعم في طي النعم .

والفوائد كثيرة ومن أرادها فليجتهد في البحث عن أسبابها فسيعرفها الذاكر بالذّوق [3] .

---

[1] - المصدر نفسه : ص 93 . و المنهج السديد : ص548

[2] - السنوسي – شرح أم البراهين : ص 93

[3] - المصدر السابق : ص 94

ومنها ما يرجع إلى الكرامات ، ويعتبرها السنوسي خوارق وهي ما يجود بها الله على أولياءه من النعم ، ووضع البركة في الطّعام ونحوه، إلاّ أنه ينبغي على المؤمن كما يذكر السنوسي أن لا يكون قصده من ذكره ، وطاعته أن يقصدها بشيء غير طاعة الله وإلاّ دخل عليه الشرك الخفي ومكر به[1] .

ويتبين ممّا سبق أنّ هدف السنوسي لم يكن ذا منحنى نظري ، فلم يكن غرضه من مجموع آرائه العقدية أن تبقى حبيسة الكتب يتداولها الناس كما تتداول سائر العلوم ، بل كان هدفه أن يتحوّل محتواها إلى واقع في حياة الناس تصورا وسلوكا ولهذا الغرض اضطلع بالدعوة إليها والعمل على نشرها وترجمة معانيها إلى زكاة وطهارة في النفس وفي الفكر والعمل ، فالعمل السلوكي هو ثمرة للتصور النظري ولذلك فهو يتأثر به صحة وفسادا ، وهى الغاية التي نشط السنوسي من أجلها، كما يتأكد هذا الأمر بشكل واضح وجلي في توظيفه العقل والنظر في بناء عقيدة المسلم لكي تقع من المؤمن بها موقع الإقناع واليقين .

---

[1] - المصدر السابق : ص 94-95